من كوريا الى الصهيونية: عن موقفك كمرآة

عامر محسن

في وسعك أن تُقارب مسألة بعيدةً عنك ولا يوجد بينك وبينها ارتباطٌ مباشر، أو أن «تخلقها في وعيك»، بأكثر من شكل. فلنأخذ كوريا مثالاً. من الممكن أن تنظر الى كوريا الشمالية على أنّها أساساً بلدٌ وشعبٌ، ونأسٌ مثلك؛ تتماهى معهم لأسباب انسانية أو لأنّهم يعانون ويُقاسون أو لأنك تراهم مهددين ومضطهدين (ومن ير الموضوع من هذه الزاوية، يُجمع عادةً على رفض العقوبات والحصار ضدّ البلد، ولو كان يُعادي النظام الكوري ويطالب بتغييره). من الممكن ايضاً أن تنظر الى القضية الكورية حصراً كقضيّة علاقات دوليّة: حكومتان تتنازعان وتقدّمان حججاً في القانون وخارجه، وأنظمة لها مصالح وأهداف تحاول فرض منطقها في لعبة القوة. أخيراً، في وسعك ايضاً أن ترى المسألة بأكملها على أنّها «رمز»، بالمعنى الايجابي أو السلبي، فتختزل كوريا في عنوانٍ عريض يختصر ما تراه فيها («النّظام»، «العداء للامبريالية»، خطر الحرب النوويّة، الخ)، فتكون كوريا «واسطة» للتعبير عن اصطفافاتك ومخاوفك ونظرتك الى العالم. ما يحدث في هذه الحالة، اذاً، لا يقتصر على مصادرة للوقائع والتاريخ ـ اذ تصبح تفاصيل و«خلفية» أمام الرمز الطاغي ـ فكلّ تمثيل لقضيّة عامة، بعيدة، ينضوي على «مصادرة» ما. الأهمّ هو أنّك، هنا، لست تتكلّم على كوريا وقضيتها وحالها، بل تتكلّم حصراً عن نفسك، وتعبّر عن هويّتك انت وانحيازاتك.

في هذا الإطار، ومع اشتداد التوتّرات في شبه الجزيرة الكوريّة، قام موقع «ذا انترسبت» بنشر «نظرة من الداخل» عن كوريا الشمالية، عبر مقابلة مطوّلة مع كاتبة أميركية أمضت سنوات في بيونغ يانغ وهي تدرّس أبناء النخبة في جامعة العلوم والتكنولوجيا. حتّى نفهم، بداية، المنظار أو العدسة التي يتمّ من خلالها تقديم البلد، يشرح الموقع أنّ الكاتبة سوكي كيم هي أميركية من أصل كوري جنوبي، ذهبت الى بيونغ يانغ بدعوى تعليم الانكليزية للطلّاب، ولكنّها في الحقيقة، يقول «ذا انترسبت» في تقديمه، كانت «في مهمة متخفية»، تهدف الى جمع المعلومات واجراء تحقيقاتٍ داخل كوريا خفيةً عن كلّ من يحيط بها. كانت المقابلة غريبةً، انزلق فيها المحاوران الى نوعٍ من التحليل النفسي للشعب الكوري، وتشخيص المرض أو الانحراف الجماعيّ الذي يدفعه الى حمل نظرةٍ للعالم تغاير «نظرتنا» بشكلٍ جذري. تقول كيم إن تلامذتها كانوا أذكياء ولبقين وجادّين ويعاملونها بحبٍ واحترامٍ، ولكنّها تصفهم بأنّهم يعيشون «في حالة هذيان»، بسبب نظرتهم الى السياسة والنظام، وتقول في كتابها «لم أتمكن سوى من التفكير بأن تلامذتي... هم مجانين».

تشرح كيم أن الكثير من الكوريين الذين يحاورون الأجانب هم مثقفون و«قادرون على الكلام على مستواك» (!)، ولكنها تضيف أنهم «تربوا على التفكير بشكلٍ مختلف، الواقع لديهم مشوّه». ثم تسمّي كوريا الشمالية «ارضاً من الكذب». المسألة الأخرى التي تركّز عليها كيم وهي ـ على ما يبدو ـ اثارت خيبتها وخيبة كاتب المحاور، تتلخّص في أنّ أبناء النخبة الحاكمة، بعد سبعين عاماً وثلاثة أجيال، لم يتحوّلوا الى الفساد والكلبيّة وملاحقة الامتيازات كما توقّعت، بل هم مقتنعون بالكامل بمبادىء النّظام، ولا ينالون أية امتيازات تفرّقهم عن غيرهم، على حدّ قول كيم. تُضيف أن أكثرهم قد عمل في مزارع جماعية وكان يُمنع عليهم ـ كباقي الطلّاب ـ الاتصال بأهلهم أو اللقاء بهم خلال فترة الدراسة، ولم يزر أحدٌ منهم في حياته ـ مثلاً ـ جبال كوريا ومنتجعاتها. لهذا السّبب، ومع اختبارها لهذه الصلابة الايديولوجية، قرّرت كيم أنّ كوريا «حالةٌ ميؤوس منها»، وأنّه لا يمكنك أن تعقد أيّ تفرقةٍ بين الشّعب والنّظام: «هؤلاء الرجال هم بلطجيّة، كيم جونغ ايل وكلّ الباقين. هذا هو ذوقهم وقد تحوّل الى ذوق البلد» (بالمقابل، وعلى طول الحوار الممتدّ في مواضيع علم النفس والايديولوجيا والاستشراق، لم تذكر كيم ولا المحاور ـ ولو بجملةٍ واحدة ـ الحصار والعقوبات وتأثيرها على الناس هناك).

العالم يتذكّر الحرب الكوريّة وأهوالها، ويعتبر أنّها كانت مفصليّة في تشكيل نظرة الكوريين الى أنفسهم والى أميركا. ولكن، في الذاكرة الكورية الشماليّة، فإنّ قصّة المظلوميّة لها مرحلتان، يتمّ وضعهما على قدر المساواة: الحرب الكورية التي ذهب ضحيتها خُمس سكّان شبه الجزيرة، و«المسيرة المضنية»، أي مرحلة الحصار والمجاعة التي امتدّت من أواسط التسعينيات وحتّى بداية الألفية، ولم يتعافَ البلد من آثارها الى اليوم. رغم افتقار شمال كوريا الى السهول الزراعية الواسعة، وتركّز الأرض المنتجة في مناطق محدودة في غرب وجنوب غرب البلاد، فإنّ الانتاج الزراعي الكوري كان يكفي حاجة السكّان من المواد الأساسية. حتّى أواخر الثمانينيات، كانت كوريا الشمالية تنتج، مثلاً، أكثر من ثمانية ملايين طن من الحبوب (مقابل استهلاكٍ يقارب الخمسة ملايين طن). ولكنّ هذا الانتاج الكثيف في أراضٍ محدودة كان يعتمد على استخدام الطاقة والوقود والمضخّات والأسمدة. لهذا السّبب، لم يعد الانتاج الكوري الى اليوم، بعد ما يقارب العقدين على فيضانات عام 1995 التي دمّرت ثلث البلاد، الى أكثر من نصف مستواه السابق، طالما أن المكننة غائبة والأسمدة محدودة؛ فتظلّ البلاد، هكذا، باستمرارٍ على حافّة الجّوع (الخطة الأميركية الآن، التي يجري الترويج لها مع الصين وروسيا، هي في قطع امدادات الوقود بالكامل عن كوريا، حتى تنهار هذه القطاعات كلّها ويشلّ الانتاج).

«الحليف الراديكالي»

هذه الحال هي ما يجعل «التحدّي النووي» الكوري، وقدرة بيونغ يانغ على بناء «درع» نووي في فترةٍ قصيرة، أمراً مدهشاً و«عقلانياً» في آن. لا يخفي الخبراء الأميركيون أنهم لم يتوقّعوا أن تجتمع لدى كوريا، بهذا الشكل السريع، أسلحة نووية متقدّمة، وبأحجامٍ صغيرة، إضافة الى أكثر من صاروخ ووسيلة لايصال هذه الأسلحة لمسافات بعيدة. بل إنّ موقعاً متخصّصاً تابعاً لكلّية «سايس» في واشنطن يشير الى أنّ الكوريين قد طوّروا ـ اضافةً الى المحركات اللازمة لدفع صواريخ بعيدة المدى ـ وسائل صناعيّة متقدّمة لبناء هيكل الصاروخ وحاويات الوقود تعتمد على مواد مركّبة، أقلّ وزناً وأكثر فعالية من المعادن التقليدية، وهي تسمح بزيادة مدى هذه الأسلحة وحمولتها (وقد أظهرت صورٌ رسمية الآلات التي «تنسج» هذه المواد، على شكل أليافٍ، في خطّ انتاج الصواريخ). بل، يضيف الموقع، فإن التجربة الصاروخية الأخيرة قد تشير الى أنّ كوريا قد طوّرت تقنيّة جديدة، خطيرة، لصواريخها العابرة للقارات، تدعى «مركبة ما بعد الدّفع» (post-boost vehicle) ومختصرها أنّ الراس الحربي، بعد أن ينفد الوقود من الصاروخ وينفصل عنه، يكون مجهّزاً بنفّاثاتٍ تزيد من تسارعه بعد نهاية مرحلة الدفع الأصلية. يقول خبراء «سايس» إنّ هذه التقنية توصلت اليها دولٌ قليلة، بينها فرنسا والصين، وهي تعني زيادة مدى الرأس الحربي، وارتفاع دقّته و ـ وهذا أهمّ ـ أنّه يملك امكانية المناورة وتضليل أنظمة الدفاع المضادّة التي تعتمد على التنبوء بمسار الصاروخ وانتقاء «نقطة اعتراض» على هذا الأساس (فيكون الصّاروخ على طول مساره موجّهاً الى مدينة سياتل، مثلاً، ثمّ ينحرف الرأس الحربي بعد الانفصال ويتّجه الى سان فرانسيسكو).

التركيز على هذه التقنيات «عقلاني» لأنّ كوريا الشمالية، كما أسلفنا، لا أمل لها في هزيمة اميركا وكوريا الجنوبية في حربٍ تقليديّة، أو حتّى منع الاعتداء عليها، فيما النووي يساوي بين الجميع. وضعت كوريا الشمالية كل مواردها العسكرية في مجالاتٍ محددة، منها السلاح الذري والصواريخ، وانسحبت من المنافسة في المجال التقليدي المكلف (كسلاح الجو والمدرعات)، وهنا كان الرّهان. اضافة الى هذه الأسلحة «الشهيرة»، فإنّ كوريا قد عملت مؤخّراً على انتاج نظام دفاعٍ جوّيّ متقدّم، يشابه نظام «اس ـ 300» الرّوسي وبرادارٍ حديثٍ وصواريخ بعيدة المدى. تمّ إظهار هذا السّلاح للمرة الأولى عام 2012، ولكنه لم يدخل الانتاج ـ بحسب السلطات الكورية ـ حتى هذه السّنة. نظامٌ كهذا، لو تمّ انتاجه ونشره على نطاق واسع، قد يصعّب جدياً من مهمّة الحرب الغربية ضدّ كوريا ويجعل من السيطرة الجوية مهمّة مكلفة، بخاصّةٍ وأنّ مزيج الطبيعة والتحصينات يعطي امتيازاً لكوريا الشمالية في الدفاع الجوي ـ فشمال البلاد ترتفع فيه الجبال المشرفة، التي تكشف جنوب البلاد والبحر بسهولة، وفي ظهرها الصين التي لن يخترق مجالها الجوي الطيران الأميركي في أي حربٍ محتملة.

المسألة هنا هي أنّ حيازة كوريا على سلاحٍ من هذا النّوع لن يكون بلا تأثير بالنسبة الى سياقنا العربي. آخر مكانٍ ظهرت فيه أسلحة كورية شمالية حديثة، بالمناسبة، كان قطاع غزّة، حيث تم تصوير صواريخ كورية شمالية مضادّة للدروع في يد مقاتلي «القسّام»؛ وقد أرسلت اليهم كوريا أحدث ما لديها، صاروخ «بولساي ـ 2». لو انتشر نظام الدفاع الجوي الكوري الشمالي المذكور أعلاه، فإنك قد تجده في ايران أو لبنان أو سوريا خلال أشهر، فيما باقي «الأصدقاء» في العالم، ولو من مستوى الصين وروسيا، لن يبيعوك سلاحاً «خطيراً» كهذا، وسيماطلونك أو يعرضون نسخات قديمة أو يخضعون لضغوط اميركا واسرائيل، فيما الحليف «الراديكالي» ـ مثل كوريا ـ مستعدٌّ لبناء خطوط انتاجٍ لك لو شئت، بل ومشاركتك التكنولوجيا النووية والصواريخ (وتاريخ بيونغ يانغ معروفٌ في هذا المجال، وبخاصة مع الدول العربية وايران).

الأوجه الكثيرة للصهيونية

الموقف من قضايا مثل كوريا، وطريقة تعاملنا مع خطاب الهيمنة الرسمي، وتبنينا لما يبرزه وما يخفيه، يعبّر غالباً عن صورتك انت: موقعك الطبقي والمهني، المكان الذي تعيش فيه، نظرتك الى العالم، أولوياتك الفرديّة، علاقتك مع القوّة، الخ. وليس غريباً، لهذا السبب، أن تجد هذه الصفات متعامدة مع الموقف السياسي والمصلحة الفردية لدى أكثر النّاس. كما كتب ستيفن سلايطة حين روى تجربته مع الجامعة الأميركية في بيروت (ترجمت «الأخبار» المقال ونشرته منذ أيّام)، فإنّه من الخطأ أن نعتبر الصهيونية ايديولوجيا اثنية، وأن النقاش حولها محدودٌ بالميدان الفلسطيني. الصهيونية والموقف منها، يقول سلايطة، تعبّر اليوم عن شيءٍ أعمق بكثير. الصهيونية تشبه بمعنى ما «روح القوّة» في عالمنا وهي من هنا، يكتب سلايطة، موجودةٌ في بيروت مثلما هي موجودة في نيويورك وتل ابيب. كلّ من يريد أن يتقرّب الى «القوّة» يشعر بحاجةٍ الى التطبيع مع الصهيونية، والامتناع عن مواجهتها، ونبذ من يعاديها. لهذا السّبب تكتشف أنّ كلّ من يبني طموحاً فوقياً ويودّ التّماهي مع القوّة الغربية، من حكّام الامارات الى بن سلمان الى زعماء كردستان، يجد طريقه الى الاسرائيليين. المسألة هنا لا تتعلّق بأرض فلسطين والنّقاش حولها، أو حتّى قدرات اسرائيل وتأثيرها (وهي أكثر تواضعاً مما يعتقد محبّو الصهيونية)، بل بالصهيونية كـ «رمز».

في لبنان، حين يختار مصرفٌ «لبناني» كبير (هو «سوسيته جنرال») دانييل غلايزر، أحد أعتى الصهاينة في أميركا ومسؤول الخزانة السابق الذي لا يمكن فصل شخصه عن مواقفه المتعصّبة لاسرائيل والمعادية للمقاومة، مستشاراً للمصرف ـ ويفتخر بذلك في بياناتٍ للعموم ـ فهو يفهم تماماً رمزيّة ما يفعل ولم يوظّف غلايزر من أجل مهاراته القانونيّة. وحين يشقّ مخرجٌ لبناني «طريقه الفنّي» عبر زيارة الكيان الصهيوني والإقامة والعمل فيه، فهو يعبّر عن حساسيّة لما يطلبه العالم الغربي منك كـ«فنّان» (فلنذهب جميعاً الى فلسطين اذاً، يردّد اللبنانيون الذين أهانهم الفعل، ولنرَ إن كان الكيان سيعطيني ويعطيكم اذناً بالدخول كما فعل مع زياد الدّويري).

الشيء الوحيد الأسوأ من فعل الدويري (ومن أفلامه) هي مواقفه، وهو قد عبّر عن جملةٍ منها قبل أيّامٍ في مقابلة، حين قال إنّه ـ للأسف ـ ولد في جوٍّ عروبي ويساري، ولكنّ اميركا شفتهُ من «لوثة» اليسار، ثمّ تصالح مع فكر اليمين اللبناني واكتشف أن بشير الجميّل ـ على عكس ما كان يقوله له محيطه ـ كان قائداً عظيماً ووطنيّاً، وهو قرّر ذلك بعد أن استمع الى خطبه (وهذا يعني أنّ الدويري لديه مشكلة، امّا في منهجيته البحثيّة، أو في سمعه، أو في أخلاقياته ـ لو افترضنا أنه تعرّف حقّاً الى تاريخ بشير الجميّل وأفعاله). الطّريف هنا هو أنّ الدويري زعم بحدّةٍ، بعد توقيفه، أنّه مناصرٌ للقضية الفلسطينيّة وقد «رضعها مع الحليب»، وليس لأحدٍ أن يزايد عليه في هذا الإطار، مستشهداً بماضيه العائلي. عليك هنا أن تختار: امّا أنّك مع فلسطين أو مع بشير. في المقابلة ذاتها، لا ينسى الدّويري أن يشكر المصرفي أنطوان صحناوي، القريب من «القوّات اللبنانيّة»، لأنّه شجّعه وموّل فيلمه. الصّحناوي، يا للصّدفة، هو المدير العام لمصرف «سوسيته جنرال» المذكور أعلاه وأكبر مالكي أسهمه.

من كوريا الى الصهيونية والتطبيع، مواقفنا واصطفافاتنا ليست مجرّد مواقف عقليّةٍ من قضايا «حيادية» بالنسبة لنا، بل هي غالباً ما تكون أصدق مرآةٍ عن مصالحك وطبقتك وقيمك، والسياق الذي تنطلق منه. من هنا، لا غرابة في أن تجد عرباً يتآلفون مع معاهدات السّلام والتطبيع مع الصهيونيّة والعمالة لأميركا، ولكنّهم ينكبّون على شتم ابو علي مصطفى في ذكراه (فوقاحتهم وشراستهم، كما قال أحد العارفين، لا تظهر الّا ضدّ من لا يملك سلطةً ومالاً). ومن الطبيعي أن يحترف عددٌ كبير من «المهنيّين» ـ من مجال الإعلام والسياسة الى الثقافة والفنّ ـ تحقير المقاومة والمقاومين. من يفعل كلّ هذا ليس من الغريب عليه أن يتعامل مع مأساة كوريا عبر السّخرية والتنميط، فيما هو يتماهى مع الصهيونية ويركع لرجعيّات الخليج.

وما عليه

محرقة عند أي احتكاك سياسي من النوع الحاصل حالياً؟

رابعاً، إن إحالة صقر الملف الى المخابرات تعني حكماً عدم تكليفها بالتحقيق مع سياسيين، وهذه نقطة حساسة وخطرة لأنها تترجم بالسياسة تحييد الطبقة السياسية المسؤولة في تلك الفترة بالتكافل والتضامن، والصورة الحكومية الجامعة أثناء تلاوة الرئيس تمام سلام بيان الحكومة حينها لا تزال خير دليل على ذلك، فهل هذا الأمر مقصود سياسياً، ومن أوعز بحصر التحقيق مع الضباط والعسكريين وتحييد السياسيين؟ فحملة التضامن مع رئيس الحكومة السابق تمام سلام، وزيارة رئيس الحكومة سعد الحريري له، أثمرت عدم التحقيق مع المسؤولين السياسيين وحيّدتهم ومنحتهم حصانة وسلّطت الضوء فقط على الجيش. وهذا أمر لا يخدم الحقيقة التي يفتش عنها أهل العسكريين. وهذا يعني أنه بقدر تعزيز الشفافية داخل الجيش، فإن هناك من لا يزال يقوم بتسويات سياسية ضروية للاستقرار الداخلي وتحييد المسؤولين السياسيين كافة عن هذا الملف. وإذا كان التحقيق سيرسو في نهاية الأمر على الجيش، فلماذا أثيرت كل هذه الضجة السياسية وسلّط الضوء على محاضر جلسة مجلس الوزراء وانبرى مدافعون عن رئيس الحكومة وهيئة العلماء المسلمين للدفاع عنهم وعن دورهم التفاوضي، ليحيّدوا في النهاية عن أي تحقيق؟

خامساً، من الأسئلة المطروحة حالياً لماذا لا تحال هذه القضية إلى المجلس العدلي وترك القضاء يقوم بواجبه بعيداً عن الكيديات السياسية والشخصية وتعريض الجيش لهذا المدّ الإعلامي والتجاذب السياسي حوله مجدداً، وبذلك تنحصر الانعكاسات السلبية للتحقيق في الدوائر القضائية المعنية وعدم التفريط بإنجاز قام به الجيش، فيترك مرة أخرى عرضة للتشهير، مهما كانت الأسباب موجبة ومحقة. لأن ترك السياسيين، وغير السياسيين، المسؤولين عما جرى في آب عام 2014، من دون محاسبة أو تحقيق لا يحمل سوى عنوان واحد هو التسويات السياسية التي تتكرر في كل مرة.

رافعي شعارات «حرية التعبير» و«الانفتاح والتطور» و«الإبداع الفني» عن رأيهم في فيلم أخرجه زياد الدويري في ظل نظام الرئيس بشار الأسد كما أخرج فيلمه في ظل الاحتلال الإسرائيلي.

أيشك أحداً في أن فيلماً أُخرج في ظل حكم الرئيس بشار الأسد يمكن أن تقبل لجنة الأوسكار ترشيحه لنيل الجائزة؟

اما إسرائيل، «الدولة الديمقراطية الوحيدة في الشرق الأوسط»، التي تتمتع بتفوق علمي وتقني وإبداعي وتربوي وجامعي على دولنا العربية... إسرائيل التي تحظى بدعم سياسي واقتصادي ومالي أميركي (يفوق المساعدات الأميركية لكل بلدان القارة الأفريقية) وأوروبي، فمن تعامل معها من العرب إنما هو في طليعة الشرفاء... لكن يا أولاد الـ... هل تسكت مغتصبة؟

* من قصيدة «القدس عروس عروبتكم» للشاعر مظفر النواب